رشدي راشد الكاتب الذي لا تعرفه مصر:

الباحث وائل غالي ينفق ست سنوات في قراءة مشروعه «تاريخ العلوم العربية»

القاهرة ـ «القدس العربي»

من محمود قرني:

لاشك أن ما فعله الدكتور وائل غالي بكتابه «تاريخ العلوم العربية وتحديث تاريخ العلوم» اعادة اعتبار لقيمتين أساسيتين في حياتنا أولهما قيمة العلم والعقل معا وسط ضجيج وصخب الدولة العربية شبه الفاشية التي تشهد أزمتها تراكما بالغا ربما يفضي في النهاية الى عودتها لكهوف التاريخ، وثانيهما اعادة الاعتبار للدكتور رشدي راشد أستاذ تاريخ العلوم بأكبر جامعات العالم حيث كرس غالي كتابه للكشف عن القيمة الأكبر لهذا المشروع الذي بدأه راشد منذ عام 1956 وهو المشروع الذي استمر يعمل به حتى الآن والذي انتهى باصدار موسوعته الكبرى في تاريخ العلوم العربية.

ويبدو الجهد الكبير الذي بذله غالي في سفره الهائل « 737 صفحة من القطع الكبير» غريبا على حقله المعرفي الذي يشتغل على تجليات الفلسفي في منظومة الوعي العام كما تشير مؤلفاته المتعددة. غير أنه يعلن التصدي بجرأة لهذا الموضوع الشائك والخطير لينفق ست سنوات من عمره في انجاز هذا المؤلف، الذي يجب أن يلقي احتفاء أكبر بكثير من التجاهل الذي قوبل به.

أما رشدي راشد فسوف يظهر استعراضنا للكتاب أنه تم تكريمه في العالم كله عدا بلده مصر، فهي الوحيدة ـ تقريبا ـ التي لا تعرف عنه شيئا حتى الآن.

ويعتبر غالي واحدا من دارسي فلسفة العلوم وتاريخها، ويفتتح كتابه باسداء الشكر الخاص لأستاذيه الفرنسيين المعاصرين «موريس كافلان وموريس بودو» حيث تعلم عليهما في النصف الثاني من عقد الثمانينيات من القرن الماضي في جامعة باريس 4 السوربون، وذلك الى جانب الأستاذين لوليافر ودوما.

أما عن رشدي راشد المولود عام 1936 حسبما يقول المؤلف فهو رياضي مصري وفيلسوف ومؤرخ ومؤسس استراتيجية جديدة في التأريخ للعلوم بعامة، والعلوم العربية بخاصة، وهو مقيم في باريس منذ العام 1956 ويعمل أستاذا بجامعة دوني ديدرو وباريس 7 وعدد من جامعات العالم.

يشير غالي أيضا الى أن رشدي راشد بدأ سيرته الفكرية في دراسة تاريخ الرياضيات العربية وفلسفتها وقد انطلق من الرياضيات التطبيقية، أي من ذلك الفرع الذي ينهض على كيفية تطبيق الرياضيات على الظواهر وعلى العلوم الاجتماعية.

ويشير المؤلف الى أن نظرية الاحتمالات لدى رشدي راشد حلت مشكلات تطبيق الرياضيات في العلوم الاجتماعية، ويشير أيضا الى أنه خصص فصلا كاملا في كتابه لنظري الاحتمالات وحسابها.

أما أهم ما يثيره المؤلف هو انطلاق رشدي راشد من الرياضيات المعاصرة ليكشف في الرياضيات الكلاسيكية عن التكوين العربي المتقدم للحداثة الغربية العلمية، ويقول غالي هنا: «قبل أن يحكم رشدي راشد على ماضي الرياضيات العربية تاريخا وفلسفة، كان رياضيا راهنيا، وكان على بينة من أمر العلوم الرياضية التي يتصدى لتاريخها وفلسفتها». ويضيف غالي: «من هذه الجهة نقدر أن نقول أنه أسس لتاريخ الرياضيات العربية وفلسفتها، ضمن علاقة وثيقة بواقع العلم الراهن». ويبرر غالي ذلك بأنه في مجال العلوم يجيء الراهن ليلقي الضوء على الماضي، لذا فهو يرتد الى ماضي الرياضيات من أجل الحكم على هذا الماضي في ضوء الراهن».

ينتقل غالي بعد ذلك الى استعراض نظرية الاحتمالات التي انشغل بها رشدي راشد من أعوام 1956 حتى عام 1975، وذلك قبل أن يعيد كتابة تاريخ الرياضيات العربية الكلاسيكية وفلسفتها. ويقول غالي هنا عن راشد: «انه حين ولج باب تاريخ الرياضيات وفلسفتها كشف عن التطبيقات العربية وتعبيرها عن التطبيق المتبادل بين العلوم الرياضية الذي ساد الانتاج الرياضي العربي في القرن التاسع الميلادي وعلى مدار القرون السبعة اللاحقة. ويقول غالي ان علم الجبر لعب الدور الرئيسي في اعادة بناء العلوم الرياضية العربية.

وحول اعادة كتابة تاريخ العلم يأسف غالي على غياب الحلقة العربية في البحث في مشكلات الانتقال من عالم تصوري الى عالم تصوري حديث مثل مشكلات تاريخ العلم العربي الحديث، ويرصد حدوث تراجع في البحث الدولي في تاريخ العلوم العربي وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية بدعوى أن هناك غيابا سابقا في العلوم العربية لهيكل المؤسسات العلمية التي كان المفروض أن ترعى العلم وتصونه.

ويشير المؤلف الى أن كتابه استغرق ستة أعوام في انجازه بين أعوام 1998 وحتى عام 2003 وذلك اثر اهتمامه بفكرة اللامتناهي اليوناني القديم واللامتناهي العربي القديم، ويشير الى الفضل المهم الذي قدمه له راشد باهدائه موسوعته العملاقة ـ حسب وصفه ـ عن تاريخ الرياضيات التحليلية العربية بين القرن الثالث والقرن الخامس.

ويشير غالي الى أن الموسوعة تكشف التأريخ لحساب الصغائر بين القرن التاسع والحادي عشر الميلاديين، وبخاصة التأريخ لأعمال الحسن بن الهيثم، ويشير غالي الى تناول رشدي راشد ما كتب باللغة العربية في هذا الميدان بداية من القرن التاسع حتى ابن الهيثم ثم شراحه بالاضافة طبعا الى مؤلفاته ومؤلفات عصره.

وكان قد نشر غالي مقالين بجريدة «الأهرام» و«القدس العربي» بين عامي 2001/2000 عن الرياضيات التحليلية العربية وهو ما لفت نظر الكثيرين الى المنجز المهم لرشدي راشد فكان الدفع في طريق انجاز هذا الكتاب.

والمؤلف نفسه يتعجب من وجوده في منطقة تاريخ العلوم العربية لأنه صاحب اتجاه فكري أبعد قليلا ويبدو ذلك من استعراض لبعض مؤلفاته مثل «معرفية النص، ابن رشد في مصر، العقل الديني، الخميني وماركس جبنا الى جنب» لكنه كما يقول بات متورطا في حقل الاستدلال العلمي، لكنه لا يرى مانعا من التصدي ويقول: ما المانع في ذلك؟ فان كنا لا نفكر ضد أنفسنا، فلن نعرف كيف نفكر ضد الآخر، لن نعرف كذلك وكيف نكتب، وما نكتبه ان كتبنا، لن يكون له معنى؟ ويرى غالي أن ذلك تعدد ضروري بين الخيال والعلم.

ويشير غالي بوضوح الى أن اسهام رشدي راشد تركز على الشك في الكلام السائد الذي يقال في البحث في المشكلات الجوهرية التي تتعلق بالانتقال من عالم تصوري وسيط الى عالم تصوري حديث مثل مشكلات تاريخ العلم الغربي الكلاسيكي والحديث، وذلك بحثا عن يقين آخر، عن تقسيم آخر لتاريخ العلوم بعامة. ويضيف غالي بقوله: «ان المسألة الجوهرية تتلخص في تحديد موقع الحركة التي ادت الى نشأة العلم الجديد الغربي الكلاسيكي الحديث والكلام السائد الذي يقال في البحث في هذه المسألة ينتهي اله تسمية اسم اسحق نيوتن وتعيين نظريته التجديدية في الحركة وتحديد رؤيته المغايرة للعالم وكذلك الكلام السائد الذي يقال في البحث في هذه المسألة أيضا هو أن التعديل العلمي تم فيما بين آخر القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر»، ويؤكد غالي أنه قبل هذا التاريخ لم يوجد سوى مبادرات فردية أما البداية الحقيقية التي يراها حاسمة للعلم الحديث فترجع الى عام 1543 وهو العام الذي صدر فيه كتاب «نقولا كوبرنيكس» عن دوران الأفلاك السماوية.

ويرى غالي أن رشدي راشد يعيد كتابة تاريخ العلم ليس باعتباره مجرد منظومة من القضايا والنتائج وليس باعتباره أيضا مجرد مجال للصراعات الاجتماعية، ولكن باعتباره محددا ومحتوى ومضمونا لتاريخ الجبر وفلسفته، والنظرية الكلاسيكية في الأعداد، والمناظر الهندسية والمناظر الفيزيائية والبنايات الهندسية والرياضيات التحليلية وتطبيق الرياضيات في العلوم الاجتماعية والانسانية.

ويقول غالي ان راشد يستعيد بصورة أساسية المبادرات العلمية الأولى التي بفضلها استطاع العرب لا ان يفتحوا الطريق لعلوم الرياضيات وفلسفتها الحديثة وحسب بل أن يرسوا أسس الرياضيات الكلاسيكية وفلسفتها نفسها، وينقل غالي عن تقرير للمركز القومي الفرنسي للبحث العلمي عام 1996 اشارته الى التطور المهم الذي طرأ على ميدان البحث في تاريخ الرياضيات «غير الغربية» وأيضا الى ميدان البحث في تطبيق الرياضيات في ميدان العلوم الاجتماعية والانسانية وهما الميدانان الأساسيان اللذان عمل فيهما رشدي راشد منذ عقد الخمسينيات، ويذكر لمؤلف أن رشدي راشد أدار الأبحاث الاستثنائية بالمركز القومي للبحث العلمي بباريس، ويقول هنا: «وكما انتقل رشدي راشد من الفلسفة الى الرياضيات انحسر الأدب واللغات القديمة والفن والثقافة بوجه عام، وتحولت الفلسفة المعاصرة من داخل وكفت عن ممارسة دورها بوصفها نظرية عامة في المعرفة الذاتية وبنياتها العميقة، واقتصرت على التفكير في العلوم بوصفها تحمل المعرفة الصحيحة الوحيدة». ويضيف غالي: «ان الفلسفة صارت ابستمولوجيا أو تاريخا للعلوم».

وفضلا عن كون رشدي راشد شخصية مرموقة في المجامع العلمية العالمية فان غالي يذكر أنه بالاضافة الى كونه أستاذا في أهم جامعات العالم فهو نائب رئيس الأكاديمية العالمية لتاريخ العلوم منذ عام 1997 وترأس تحرير المجلد الخاص بتاريخ العلوم العربية في موسوعة تاريخ العلوم العالمية في ايطاليا عام 2002، وهو رئيس تحرير مجلة «العلوم العربية والفلسفة منذ أكثر من عشر سنوات وهي مجلة تصدر عن جامعة كمبردج بالمملكة المتحدة وقد فاز بالجائزة البرونزية من المركز القومي للبحث العلمي بباريس بفرنسا عن كتابه الرائد عن ديوفنطس الاسكندراني في «علم العدد» وقد منحه الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا ميتران عام 1989 وسام الاستحقاق من طبقة فارس ومنحته الأكاديمية العالمية لتاريخ العلوم عام 1990 جائزة ألكسندر تويريه عن مجموع أعماله، ويذكر المؤلف هنا أن ألكسندر تويريه هو صاحب الكتاب المرجعي «الثورة الفلكية» وهذه الجائزة هي أعلى جائزة عالمية في تاريخ العلوم تمنحها الأكاديمية كل أربع سنوات، وقد منحته ايران أعلى جوائزها عام 1998 عن احسن كتاب بحثي في الدراسات الاسلامية عن موسوعته «تاريخ العلوم العربية» ومن الأشياء المهمة في مقدمة هذه الموقفة التي توقفها غالي أمام جيل رشدي راشد المرتبط بالحلم المتصاعد مع ثورة يوليو بالاستقلال والديمقراطية التي اسفرت في النهاية عن نظم شبه فاشية على طول وعرض العالم لعربي.

يقول غالي: «مضت هذه الأحلام في خط سيرها جبنا الى جنب مع حلم الأصولية كرد فعل أمام الحضارة الغربية الوافدة، على ان الأحلام، يسارا ويمينا، لم تكن مجرد ردود أفعال عند بعض المثقفين، وانما كانت أيضا بلورة عميقة الدلالة لآمال اجتماعية عامة». ويضيف غالي: «لم تكن القضية في الانحياز للفكر الغربي أو للتراث الغربي وانما كانت القضية ولا تزال في التطور اللامتكافئ بين الحضارة الحديثة والتخلف المصري العربي الاسلامي. ويرصد غالي مناخ منتصف السبعينيات من القرن الماضي الذي شهد دفاعا عميقا عن التفكير العلمي ويمثل على ذلك بكتابات سلامة موسى، شاهين مكاريوس، فارس نمر على سبيل المثال وكذلك لدى علي مصطفى مشرفة ويرى غالي ان الأمر لم يختلف لدى جيل الأربعينيات الذي ينتمي اليه رشدي راشد.

ويرى غالي ان هذا الجيل كان يرتكز على منهج متكامل سواء كان علميا أو يساريا أو ديمقراطيا ويضيف غالي ان رشدي راشد امتداد لسلالة معينة من العلماء والمؤرخين المعاصرين هي سلالة مصطفى نظيف، ومصطفى مشرفة، وغيرهما.

ويرى المؤلف أن راشد لم يهمل التراث الاسلامي الديني واللغوي بل قرأ كل ذلك في ضوء التراث الغربي العلمي البحثي حيث سجل تطبيق العلماء التحليل التوافقي في ميدان الجبر والدراسات اللغوية والفلسفية. ويضيف أن راشد كشف من جهة التراث الديني لدى عالم الرياضيات المسلم الكلاسيكي عن تفكير معين حول الرياضيات أو عن فلسفة محددة في الرياضيات لم تصدر عن فيلسوف وانما صدرت عن عالم رياضيات.

ويقول غالي هنا: «لم يبن الرياضي في اللغة العربية نظاما فلسفيا، اذا قورن بالنظم الميتافيزيقية الشهيرة في ما سمي باسم القرون الوسطى في التأريخ الغربي التقليدي»، ويرى أن مناخ هذا الوقت استحوذ عليه علم الفقه والكلام لكنه استعار موضوعه من بابوس أوبركلس أي أن الفكر في ما سمي باسم العصر الوسيط الذي استحوذت عليه الفلسفة التقليدية او علم الكلام أو علم أصول الفقه، استعار موضوعه من التراث اليوناني القديم، ولم يغير أطار التفكير الاغريقي سوى الرياضي وغيره من العلماء في أثناء بحثهم العلمي الدقيق.

ويختتم غالي مقدمته بالقول: «ان رشدي راشد ظل أمينا للفكر الوطني المصري الأصيل، وهو احد النادرين من هذا الجيل الذين جمعوا جمعا حقيقيا وعميقا بين المعرفة بالتراث العربي والاسلامي والتراث العالمي، ويصفه بأنه ليس من التوفيقيين الذين يلفقون حزب الوسط الثقافي بل هو من الذين يقيسون التراث ويراه بمدى قربه أو بعده عن الحاجات الأساسية للعلم».

يتضمن الكتاب الجديد لوائل غالي خمسة فصول وخاتمة بالاضافة الى مقدمته المطولة. جاء الفصل الأول تحت عنوان «سفر البداية» وتناول توسيع المجال التاريخي للرياضيات الكلاسيكية وأساطير تاريخ العلوم، وفي الباب الثاني تناول تاريخ الرياضيات العربية، وتناول الثالث فلسفة الرياضيات العربية اما في الفصل الرابع فتناول ترييض العلوم الاجتماعية، وفي الباب الخامس تناول التاريخ التطبيقي للعلوم، وفي الخاتمة قدم الدلالة التاريخية والمعنى العلمي لعمل رشدي راشد كما تضمن الكتاب فهرسا مطولا للمصطلحات وفهرسا آخر للأعلام التي تضمنها الكتاب.

وقد وقع الكتاب في 838 صفحة من القطع الكبير وصدر عن مشروع مكتبة الأسرة بالهيئة المصرية العامة للكتاب.

شاهد في

النص العابر للأجيال!

خيري منصور *

■ إذا كان وجود مثقف عابر للطبقات أندر من أن يتحول الى ظاهرة، فإن المثقف العابر للأجيال هو ظاهرة كونية بامتياز، إذ لولاه لاقتصر الموروث المعرفي على التراكم، ولم تصبح الرؤى النافذة والعابرة للقرون مرجعيات تستحق أن تصبح ملاذات عندما ينحرف التاريخ عن مجراه، ويتورط بقوى غاشمة تقتاده الى مصب آخر، هو منفاه.

وقد يكون ما قاله الفرد وايتهد عن حضارة الإغريق مثالا بالغ الفصاحة عن تجارب رائدة، اجترحت آفاقا، وقاومت عوامل الإماتة، وإن كان هذا الفيلسوف البريطاني المولع بالمنطق والرياضيات حد التصوف قد بالغ في رهانه على خلود أسلاف، يتمددون الى المستقبل بفضل ما لديهم من فائض الكشف والمغامرة فهو يرى مثلا أن ما تبقى للإنسانية بأسرها بعد عشرين قرنا منذ الإغريق، هو أن لا يكونوا يونانيين، أي أنهم محكوم عليهم بالمراوحة في تلك الدائرة ذات المركز اليوناني، ولهذا السبب، حاول مفكرون معاصرون ورواد اتجاهات في الفكر والفلسفة أن يؤصلوا تياراتهم بالبحث لها عن جذور لدى أرسطو أو سقراط أو هيراقليطس اضافة الى أفلاطون بالطبع، ولا يمكن لناقد حديث أن يتعامل مع مسرحية لأسخيلوس أو شعرية لفيرجيل دون أن يشعر بأن هؤلاء عبروا الزمان والأجيال معا، بحيث كان من السهل على دانتي الاليجري مثلا أن يردم الهوة السحيقة بين عصره وعصر فيرجيل في كوميدياه الإلهية، بحيث يقتاده الشاعر القديم الى ملكوت آخر، وإلى الفردوس والجحيم واللمبو الذي هو الحد الفاصل بينهما، أو ما يسمى في أدبيتنا الدينية الأعراف!

حتى منظومة القيم، سواء تعلقت بالفروسية أو المناقبية التاريخية، أو الحس الوطني ما تزال تتغذى من شواهد قبور الإغريق القدماء. حيث كانت تلك الشواهد ممهورة بعبارات أشبه بالأيقونات، عن الشهداء الخالدين، ومنهم من صورهم أفلاطون في حكايته الشهيرة عن رجل بامفيليا الذي احتفظ بطزاجته ونضرته وشبابه بعد الموت بزمن طويل، لأنه قتل وهو يدافع عن أثينا!

ولكي لا نبقى في النطاق الإغريقي، ورغم جدارته بالمكوث عنده طويلا، لأنه كما قال عنه ماركس يمثل طفولة البشرية وبكارتها ويستعصي على التصنيف التقليدي لحقب التاريخ، فإن معلقات الجاهلية سواء كانت سبعا أو عشرا أو غير ذلك، تعتبر عبرة للأجيال وما نزال نقرأ امرأ القيس وطرفة بن العبد على وجه التحديد باندهاش، خصوصا ما يتعلق بالصورة الشعرية، وعقد علاقات بين عناصر العالم المتباعدة.

وما يرشح من ذلك المعمار الشعري من رائحة وجودية يتجاوز ما يسميه المدرسيون الرؤى الوثنية للعالم، خصوصا لدى طرفة الذي قدم هواجس عن الحياة والموت، لا يعادلها الا تلك الهواجس الإغريقية التي انتظمت فكرا مجردا وليس ابداعا شعريا..

هنا، يكون النص لا المثقف هو العابر للقرون والأجيال معا، لأن عناصر وأقانيم اقامته الدائمة في التاريخ تتأقلم معها الحساسيات والذائقات على اختلاف أنماطها ومستوياتها، لهذا لم يجد السورياليون ضيرا في البحث عن جذر أرسطي لاطروحاتهم الفنية أو عن مسودات مبكرة لهيراقليطس خصوصا ما يتعلق بالزمان، أو بالنهر الذي لا يقطع مرتين!

وهنا، ينبغي التفريق بين موقفين أحدهما اتباعي ومدرسي، وأفقي، والآخر اجتراحي وموسوعي وعمودي.

الأول فكرة الخلود لمجرد أن الأجيال تتوارث النصوص حفظا أو تدوينا، أو بحثا عن اطار لهوية ثقافية.

والثاني، فكرة العبور المسلح بالوعي والجماليات، الذي لا يحتاج الى أيقنة أو تقديس قومي دفاعا عن موروث أو هوية، ويمكن أن يسمى هذا النوع العابر للزمان والأجيال الخلود لذاته مقابل الخلود بذاته اذا استعرنا مصطلحات الوجوديين التي تسعى الى التفريق بين ما هو مكتف بذاته وما هو لبلابي يعتاش على سواه!

تقدم لنا النصوص الأدبية من رواية ومسرح وشعر نماذج صالحة للاستقراء، والفرز بين ما هو عابر للأجيال وما هو متحفي يبقى لمجرد أن يقتنى، ويحرس لأسباب توثيقية فمن بين روايات القرن التاسع على كثرتها وتنوع موضوعاتها ثمة روايات تقرأ اليوم كما لو أنها كتبت البارحة، ومنها ما تحول الى منجم للمحلل النفسي وعالم الاجتماع والأنثربولو جي أيضا، فمن المعروف مثلا أن روايات ديستوفسكي قدمت المادة الخام والبكر لعالم فرويدي كلينيكي، وقد تصبح عبارة واردة على لسان الاب زوسيما في الأخوة الاعداء مقولة أثيرة لفلاسفة ولدوا بعد عقود من رحيل مؤلفها، ليس لأن ديستوفسكي كتب ما سيحدث، فهو كتب ما حدث بالفعل. . لكن القابل للحدوث في كل أوان، ما دام قد ألقى القبض بأصابعه على المفتاح الذهبي الذي يفتض الأبواب كلها.

وحين قدم ألبير كامو مسرحة معاصرة لرواية «المسوسون» لم يكن النص المعاد انتاجه مفارقا لجذور النص الأول، وما كان لألبير كامو أن يجد ضالته في ذلك المثال الا لأن هواجس واسئلة الروائي الروسي عبرت القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين.

وهذا يعيدنا الى ما يقوله مؤرخو القرن التاسع عشر عن ذلك القرن، فهو امتاز بأنه حاضنة الايديولوجيات، وكأن على أهم أطروحاته أن تعبر القرن العشرين، وكي تترجل من المرتفعات النظرية الى أرض الواقع، وتصبح أكبر حروب القرن العشرين مجرد ترجمة مؤجلة وغير فورية لحروب الايديولوجيات المتناحرة في القرن التاسع عشر، وبالرغم من أن البيان الشيوعي لماركس ليس نصا أدبيا فهو كتب في بضع صفحات عام 1848 وكان عليه أن ينتظر سبعين عاما كي يترجم الى ثورة كبرى تحدث انقلابا كونيا استمر سبعين عاما أخرى، وما يزال له من الترددات الزلزالية ما يستحق الرصد!

يذكر ناقد فرنسي أن عدد الروائين من جيل مارسيل بروست كان كبيرا، ومعظم هؤلاء حقق شهرة واسعة لم يحققها بروست، لكن صاحب رواية البحث عن الزمن الضائع عبر الزمان الى أجيال جديدة، وأعيد له الاعتبار، مما يضيف الى كونه عابرا للأجيال ميزة عبور الذائقات والحساسيات وهذا ما يقوله مؤرخو الفترة التي ظهر فيها أبو الطيب المتنبي في تاريخنا الأدبي، فقد خلف هذا الشاعر وراءه أعدادا غفيرة من الشعراء الذين مكثوا حيث هم.

ولو اقتربنا أكثر من هذا، لوجدنا أن رواد الشعر العربي الحديث قبل ستة عقود، منهم من عبر الى العقود والأجيال اللاحقة ومنهم من مكث في قبره بحيث لا يرد ذكر الماكث في ديوانه أو قبره الا لماما ولأسباب تاريخية خالصة، تخص مؤرخي الأدب أكثر مما تخص الشعراء!

وهناك وهم لا بد من تبديده احترازا من اختلاط النوايا أو درءا للالتباس وسوء الفهم، وهذا الوهم، هو ادعاء بعض الشعراء ممن ينصرف عنهم أهل زمانهم بأنهم ولدوا قبل الأوان، وأنهم بانتظار أجيال تعيد لهم الاعتبار، وتتوفر على أدوات ومناهج تليق بقراءتهم أو استقراء مكنونهم المهمل.

حقيقة الأمر أن من يعتقدون ذلك انما يدافعون عن نصوصهم ضد الهجران، وقد يكونون أدرى بشعاب هذه النصوص من غيرهم، لأنهم يدركون أن للطلاق البائن بينهم وبين ما يحيط بهم من شقاء ثمنا لا بد من تسديده فالتذرع بالذات باعتبارها الحقيقة الوحيدة الماثلة في الوجود، واقصاء التاريخ والتمحور حول الأنا بأضيق معانيها الفردية، ولا ينتج بالضرورة نصوصا عابرة لزمانها وللاجيال لأن ليس كل ما هو غامض ماسا يتلألأ من أعماقه، وثمة الكثير من الفحم الموصد على سواده، والذي لا يوحي بغير حقيقته الفيزيائية!

وقد طويت تلك الصفحة التي تساءل فيها بطل قصة موباسان عن النهر الوهمي في اللوحة، ولم يعد بعد كل هذه الخبرة البشرية ممكنا اغواء ناقد بلوحة مقلوبة، أو بنص شعري تم تلفيق مفرداته جزافا وبطريقة اليانصيب كما فعل أحد المفتونين بالدادائية لمجرد أنها مصطلح عديم المعنى في اللغة!

إن ما يكتب الآن به من الوفرة ما يتحدى أي حاسوب على الحصر، خصوصا بعد أن شارك الانترنت في الكتابة على طريقته، وأتاح للهواة تجريب كل ما يخطر ببالهم بمعزل عن أي تقنين ابداعي.

وقد تبدو بعض النصوص عاجزة عن عبور صفحة في جريدة أو مجلة لتدوم أكثر من يوم واحد، والرهان على عبور ما ينشر الآن الى القادمين ليس ميسورا حتى للعرافين، ومدعي النبوءات، لكن الخبرة الجمالية تتيح للمرء أن يحزر بحاسته النقدية ما هو مرشح لهذا العبور، إن لم يكن الادراك الواعي متاحا، إن ما يضاعف من ازمة الاستقراء لما يكتب وليس قراءته على نحو استهلاكي فقط، وهو انحسار النقد كحرفة، بحيث اصبح يمارسه العاطلون عن الإبداع لمجرد كتابة استثمارية لما هو مقروء فقط، حتى لو كان مقروءا بعيون الآخرين!

* شاعر وكاتب من الاردن

سوناتا الخريف

محمد العربي غجو *

يكفي أنك في خط الزوابع
لينحني الخريف أمام أشجارك
وتعلو الشمس خرير مائك
يكفي أنك تطل من سماء
مرصوفة بحزن سرمدي
لتأوي لجناحك الطيور المشردة
والقصائد المغضوب على سيرتها
يكفي أن ترف بأصابعك
لينهمر الضوء منها
حمامة زرقاء
تنام قريرة العين
في صمت السحب
يكفي أنك طائر
لا يشبه الطيور
لتترقرق في فمك تراتيل العصور
ويقطر من ضوء شفاهك
عسل الحياة
يكفي أنك تشهر في وجه العالم
بطاقة ورد حالمة
ليتحول حزن الموناليزا
بين عينيك
إلى قمر مدور
يكفي أنك تهطل كمطر قديم
في ظهيرة حزينة
لتستفيق زهرة الألم
في ضلوع الكمان
وتصغي مسحورا
لسمفونية البحر

* شاعر من المغرب